الذَّهَبِيّ وَكِتَابُهُ
سِيَرأعلام النبلاء

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد النبيِّ العربي الأميِّ، وعلى آله وأصحابِه الطيبين نجومِ الهُدى في كل حين، وبعد:

فهذا مختصرٌ نافع إن شاء الله في سيرة مؤرخ الإسلام الإمام الثقة التِّقن الناقِد البارع شمس الدين الذهبي، وفي كتابه النفيس «سِيَر أعلام النبلاء» ومنزلته بينَ الكتب التي مِن بابته، جعلتُه في فصلين: الأول في سيرة الذهبي والثاني في كتابه «السير».

تناول الفصلُ الأول البيئة الدمشقية التي نشأ بها الذهبيُّ بكل ما كان فيها من نهضة علمية واسعة، وما اعتراها مِن صراعات عقائدية، وانتشارِ الجهل، والاعتقادِ بالمغيَّبات بينَ العوام. وحاولت أن أُقَدِّمَ صورةً لبيئته العائلية المتدينة المَعْنِيَّة بالعلم التي ربته على حبِّ العلم والعلماء منذ نعومة أظفاره مما هيَّأه لمستقبل علمي مرسوم، فرأيناه عند اكتمال شخصيته يُعْنَى بطلِب العلمِ من قراءات وحديث؛ ثم تتبعتُ رحلاتِه في طلبِ العلم، واستطعتُ أن أُحدِّدها بالبلادِ الشامية والمصرية والحجازية، وبَيَّنتُ نتيجة تتبُّعي لنشاطه أن رحلته إلى البلاد المصرية كانت بينَ شهر رجب، وذي القعدةِ مِن سنة ٦٩٥ هـ، فصححتُ بذلك آراء بعضِ المؤرخين في هذه المسألة. وأوضحتُ طبيعة دراساته، وذكرتُ أنها كانت متنوِّعة لم تقتصِرْ على جانب واحد، لكنها في الوقت نفسِه لم تخرُج عن دائرة العلوم الدينية عموماً والعلوم المساعدة لها مِن تاريخ ونحو ولغة وأدب.

وتناول الفصلُ صلاتِ الذهبي الشخصية بابن تيمية والمِزِّي والبِرْزالي وأثرها في تبلورِ فِكره السَّلَفي المتمثل بميلِه إلى آراء الحنابلة ودفاعه عن مذهبهم في العقائد، وارتباطه الشديد بالحديث والمحدثين، ونظرته إلى العلوم والعلماء وفلسفتهم تجاهَ العلوم العقلية، مما أثر في منهجه التاريخي تأثيراً واضحاً، فظهر في اهتمامِه الكبير بالتراجم التي صارت تُكَوِّنُ أُسسَ كتبه، ومحور تفكيره التاريخي، وفي نظرته إلى الأحداث التاريخية وأسس انتقائها، ثم فيما وُجِّه إلى كتاباته مِن نقد أثار نقاشاً بين علماء عصره، وعند العلماء الذين جاؤ وا بعده.

أما نشاطُه العلمي، فقد بينتُ أنه اتخذ وجهتين رئيستين: أولاهما كتاباتُه الكثيرة، وثانيتُهما تدريسُه الحديث في أمهات دور الحديث بدمشق بحيث استطعنا التعرفَ على خمس دور للحديث كان يتولّى مشيختها في آن واحد قُبَيْلَ وفاته.

وأبنتُ منزلة الذهبي العلمية استناداً إلى دراسة مُسْهَبة لآثاره الكثيرة التي خَلَّفها. وقد أظهرت الدراسةُ أن منزلته العلمية وبراعته ظهرتا في أحسن الوجوه إشراقاً وأكثرها تألُّقاً عند دراستي له محدثاً ومؤ رخاً وناقداً. وعلى الرغم من أنه عاش في بيئة غلب عليها الجمودُ والنقلُ والتلخيصُ، فإنه قد تخلَّص مِن كثير من ذلك بفضل سَعة دراساته وفِطنته. وكان مفهومُ التاريخ عند الذهبي يتَّصِلُ اتصالاً وثيقاً بالحديثِ النبوي الشريف وعلومه، وقد ظهر ذلك في عنايته التامة بكتب التراجم التي قامت عليها شهرتُه الواسعة باعتباره مؤ رخاً. وقد جعلت منه معرفتُه الرجالية الواسعة ناقداً ماهراً، ظهر ذلك في مؤ لفاته المعنية بالنقد وفي التفاتاته البارِعة في أصول النقد، ورده لكثير من الروايات، وتخطئته لكبار النقاد، وقدرته الفائقة على البحث والاستدلال.

وختمتُ الفصل بتذكرة مختصرة في تآليفه واختصاراته وتخريجاته مرتبة حسب موضوعاتها، وأشرتُ إلى ما طُبِعَ منها وما هو مخطوط مع بيان مكان النسخة الخطية على سبيل الاختصار. وقد تمكنتُ أن أَعُدَّ له مئتين وخمسة عشر مؤلفاً ومختصراً وتخريجاً.

أما الفصل الثاني الذي خصصتُه لمنهج «السِّيَر» وأهميته، فقد بدأتهُ بالكلام على عنوان الكتاب وتأليفه، وتمكنتُ فيه أن أُحدِّد تاريخَ تأليف الكتاب بسنة ٧٣٢ هـ خلافاً لما هو شائعٌ عند الناس. ثم عَرَّجتُ على نطاق الكتاب وعددِ مُجلداته وتوصلتُ إلى أن الذهبي لم يكتب المجلدين الأول والثاني منه إنما طالب النُّسّاخَ باستلالِهما من تاريخه الكبير «تاريخ الإسلام»، وأن المجلدين لم يُفقدا كما نصت وقفيةُ الكتاب على المدرسة المحمودية، ثم أثبتُّ ـ بما لا يقبل الشك ـ أن المجلد الثالث عشر الذي وصل إلينا ليس هو آخر الكتاب، كما ادعى الدكتور الفاضل صلاح الدين المنجد، وتابعه الناسُ عليه، بل إن هناك مجلداً آخر يُتمم الكتاب هو المجلد الرابع عشر ومنه رجحتُ أن يكون الذهبي قد رتب كتابه على أربعين طبقة تقريباً وليس على خمس وثلاثين كما هو شائع.

وتناولت في هذا الفصل أيضاً ترتيبَ الكتاب على الطبقات فرأيتُ أن مستلزمات البحث تقتضي استعراضاً لظهور هذا الترتيب في تاريخ الحركة التأليفية عند المسلمين، ومحاولةً لتحديد هذا المفهوم التنظيمي عند الذهبي عن طريق دراسة مؤلفاته التراجمية المرتبة على الطبقات، ومنها كتابه «السير». وقد تمكنتُ فيما أعتقد ـ من تفسير التناقض الظاهري الناتج عن اختلاف عدد الطبقات في مؤلفاته ضمن وحدة زمنية محدَّدة معلومة، باختلاف نوعية المترجمين بينَ كتاب وآخر. وأوضحتُ بعد ذلك أن فائدة

الترتيب على الطبقات إنما تظهر في العصور الإسلامية الأولى، لذلك صِرنا لا نشعر بوجود «الطبقة» في كتاب «السير» كلما مضى الزمن بالكتاب، وضربتُ لكل ذلك أمثلة من الكتاب تعزز هذه الآراء وتقويها.

وكان لا بد لي، وأنا أبحث في منهج الكتاب، أن أتناول طبيعة التراجم المذكورة فيه، والأسسَ التي استند عليها الذهبيُّ في ذكر ترجمة وإسقاط أخرى، فأبنت أنه ذكر «الأعلام» وأسقط المشهورين والمغمورين، وحاول أن يُوجِدَ موازنةً بين الأعلام في النوعية والأزمان والأمكنة، واجتهد أن يُقدِّم ترجمة كاملة، ومختصرة في الوقت نفسه لا تؤثر فيها كمية المعلومات التي تتوافر عنده.

ولما كان الذهبي فناناً تراجمياً متميزَ الأسلوب في صياغة الترجمة وأساليبِ عرضها، فقد حاولتُ استشفافَ منهجه الذي انتهجه في «السير» في هذا المجال.

ثم تناولتُ بالدراسة منهجَه النقدي، فوجدتُه معنياً بكلِّ أنواعه، لم يقتصِرْ فيه على مجال واحد من مجالاته، فقد عُنِيَ بنقد المترجَمين وتبيانِ أحوالهم، وأصدَرَ أحكاماً وتقويمات تاريخية، وانتقدَ المواردَ التي نقل منها، ونبّه إلى أوهام مؤلفيها، وبرع في إصدار الأحكام على الأحاديث إسناداً ومتناً، وسحب ذلك على الروايات التاريخية. وحاولتُ بعد ذلك أن أستبين مدى تعصبه، أو إنصافه في النقد، فتبيَّن لي، بعد دراسة لجملة من كتاباته، أن الرجلَ قد وُفِّقَ إلى حدٍ كبيرٍ أن يكون مُنصفاً، ونَبَّهتُ إلى وجوبِ التَّفريق بين التعصب وبين الإيمان بالشيء، والدفاع عنه بكل ممكن.

أما أهميةُ كتاب «السير» فقد اجتهدتُ أن أستشرفها من دراسة علاقته بكتاب «تاريخ الإسلام» إذ كان قد شاع بين أوساط الدارسين أن «السير»

مختصر من «تاريخ الإسلام»، وقد أبانت دراستي للكتابين بطلانَ هذه الدعوى، ثم تكلمتُ على أهمية الكتاب في دراسة الحركة الفكرية العربية الإسلامية، وأهميته في دراسة المجتمع الإسلامي.

وحاولت بعد ذلك توضيحَ العوامل التي يسَّرت ظهور هذا الكتاب محققاً بهذه الهيئة العلمية الرائعة، والصفة البارعة النافعة التي تَسُرُّ كُلَّ محب للتُّراث، حريص عليه.